

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة حول استشراف مستقبل الربيع العربي

د. صافي قصص

إن الحمد لله الواحد الاحد. سبحانك اللهم أنك على كل شيء قدير ونستعينك ونستغفرك ونتوب إليك. و صلى الله على سيدنا محمداً و على آله و صحبه و سلم.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله و بركاته و أتقدم بالشكر الجزيل لمعالي الدكتور أنور عشقي على كريم دعوته لنا جميعا و على اختياره لهذا الموضوع المهم، جزاه الله عنا كل خير.

أما بعد، فإنه من المهم في اعتقادي قبل الدخول في الموضوع أن نعرّف المصطلحات و ذلك زيادة في الايضاح.

استشراف المستقبل هو نوع من أنواع التخطيط الاستراتيجي يقوم به متخصصون حتى يمكن توقع ما يمكن حدوثه بناء على المتغيرات المحيطة بالحدث. و يجب أن يبداء حكما بفهم مجريات الاحداث و الاستراتيجيات التي أدت لحدوث ما يحدث حتى يتمكن الباحث من بناء افتراضاته عن مستقبل الاحداث على أساس متين، بينما يبحث في البدائل المحتملة أو السيناريوهات التي يمكن أن تحدث. و لا بد لي هنا أن أؤكد إن أهم ما يكشف ستر المستقبل هو معرفة سنن الله في مجريات الأحداث كما دلت عليها نصوص القرآن والسنة. و لكن هل يحض الاسلام المسلم على التفكير بالمسقبل و العمل من أجله؟ عجبا... أو ليست الآخرة هدف كل مسلم؟ أو ليست في المستقبل؟ أو ليس عملنا في الدنيا مقدمة لما وعدنا به ربنا في الآخرة و كل ما نعمله يهدف الي تحقيق ذلك الوعد؟

و عليه، يجب أن تكون الرؤية الإستراتيجية التي تبنى عليها البدائل المحتملة واضحة و مقنعة لمحيطها الداخلي و مفهومة من محيطها الخارجي وتمثل الغرض الأساسي الذي يطمح اولي الامر تحقيقه، بحيث تكون نصب الأعين للتذكير دائما بما نصبو اليه حتى يمكن التقدم بخطوات ثابتة.

فصياغة الرؤية هو الخطوة الأولى لوضع الخطط الإستراتيجية ويجب على العرب أن كانوا ينوون بناء مستقبل زاهر، في عالم متطور، تسود فيه تكنولوجيات جديدة ووسائل معرفة متطورة، أن تكون لهم رؤية موحدة أو على الأقل متشابهة و إلا انتهوا إلى التشرذم المقيت السائد الآن، حتى تكالبت عليهم الأمم كما تتكالب الأكلة على قصعتها، ليس من قلتهم و لكن

من تفرق قلوبهم. فوجود رؤية لدى العرب هي أول خطوة نحو التقدم و أنعدامها ضياعٌ من فوqe ضياع، " و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور"¹.

والتخطيط للمستقبل يعتمد التخطيط بالسيناريوهات و هو طريقة لاستشراف المستقبل بالتعرف على طبيعة وتأثير القوى الفاعلة و تفهمها كي نستطيع بناء السيناريوهات على المفهوم و المتوقع. و ما استخدام هذه الوسيلة من وسائل الإعداد للمستقبل إلا استجابة لما أمرنا به ربنا من الإعداد حيث قال تبارك و تعالى: "و لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة"² فمن هي هذه القوى الفاعلة المحيطة بنا و أهمها الولايات المتحدة و ماذا تريد منا و الاهم هو ما الذي نريده منها؟

إذا لم يتمكن العرب من الاجابة على هذا السؤال بشكل واضح فلن يكون بإمكانهم وضع الاستراتيجية الملائمة للتعامل مع واشنطن، وسيبقون في تخبط و تناقض في اتخاذ المواقف و القرارات الخاصة بالتعامل مع امريكا. و سببُ هذه المشكلة هو تعدد مظاهر الوجود و التدخل و التورط الامريكي في الشرق الاوسط، فأمریکا تدعم اسرائيل و تحتل العراق و تحارب القاعدة و تسعى لتحقيق التعايش بين الفلسطينيين و الاسرائيليين و توجه التحذيرات و التنبيهات و حتى التهديدات لايران و سورية و حزب الله، و تمارس الضغوط على السعودية و مصر و الجامعة العربية و تسعى لتعزيز نفوذها في دول مجلس التعاون الخليجي ، و تتبنى "كما تدعي" مشروعا كبيرا لدعم الديمقراطية و الاصلاح و الانفتاح السياسي في الدول العربية و تتكلم عن زيادة امكانيات التنمية الاقتصادية العربية و تعلن عن تبنيتها لمشروع الشراكة الاقتصادية مع منطقة الشرق الاوسط الذي يتضمن طبعا دفع عملية التطبيع بين الدول العربية و اسرائيل³.

و لكن بحسب دراسة استراتيجية حول "مستقبل أمن الشرق الأوسط" أعدتها مؤسسة راند في 2005، ضمن مشروع ممول من الحكومة الأمريكية باسم "مشروع إير فورس"⁴، و بكلفة قدرها 210 مليون دولار فإن لدى الولايات المتحدة الأمريكية العديد من المصالح الحيوية و الدائمة في الشرق الأوسط، أهمها: استقرار إمدادات الغاز الطبيعي و النفط و أسعارهما.

و قد عرّف عدد من اساتذة العلاقات الدولية المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة في الشرق الاوسط كالتالي:

¹ سورة النور آية 40

² : الآية 46 من سورة التوبة

³ الثلاثاء فبراير 10, 2009 ماذا تريد أمريكا من العرب؟ جريدة الشرق الاوسط

⁴ <http://www.defenseindustrydaily.com/rands-project-air-force-gets-5year-2106m-extension-01352/>

أولاً: مصادر موثوقة و معتمدة لأمدادات الطاقة (النفط و الغاز)، ثانياً: مكافحة الإرهاب، ثالثاً: منع انتشار أسلحة الدمار الشامل. كما أن للولايات المتحدة التزام أخلاقي بأمن إسرائيل وتفضل انتشار الديمقراطية وحقوق الإنسان⁵.

معرفة هذا كله ضروري بل الزامي لفهم ما يجري و ما هو متوقع. و حتى لا نكون مجرد شهود على ما يجري، علينا أن نبدأ بالبحث و الاطلاع و هذا جميعه متاح لمن اراد أن يعلم. و لكن ما الذي يريده العرب من الولايات المتحدة؟ ولو سألت أي عربي من المحيط الى الخليج لأجاب: أن تدفع الولايات المتحدة باتجاه حل عادل و منصف للقضية الفلسطينية و لكان الجواب الثاني هو أن لا تكيل بمكيالين فما هو حق لمواطنيها يجب أن يكون حقاً لكل الناس. فالحرية حق للناس جميعاً و كذلك الديمقراطية و المساواة أمام القانون. و لكن الدول تسعى أولاً و أخيراً لتأمين مصالحها و الحفاظ عليها. أما النظرة الاخلاقية للموضوع فهي نظرة ساذجة.

و قبل أن ندخل في موضوع السيناريوهات و المستقبلات البديلة للربيع العربي علينا أن نبدأ بتخيل خارطة لمحيطنا، منبسطة إمامنا حيث ساصحبكم لمتابعة أحداث لا رابط بينها في الظاهر بينما هي نتاج إستراتيجية واحدة هدفها تأمين تفوق نوعي لصاحبها على اقرانه من المخططين في الدول المواجهة. و الأساس هو أن ندرك أن ربيع العرب لم يحدث في فراغ بل أن لكل فعل في هذا العالم ردة فعل. فالربيع العربي هو ردة فعل على الظروف المحيطة. و قد أصبح هو نفسه فعلاً يتطلب ردة فعل من الآخرين. و الجميع يعلم أن الدكتاتوريات و الضغوط الداخلية انتهت بثورات أو انتفاضات تلقائية في العالم العربي و لكنني أود الآن أن أضيء على الظروف العالمية المحيطة بدول الربيع العربي و التي بلا شك ستؤثر في مستقبل الدول العربية.

و أول هذه المؤثرات هو مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالتغيرات المناخية⁶ الذي توصل يوم الأحد 11 ديسمبر إلى اتفاق من شأنه أن يلزم - لأول مرة - أكبر الدول الملوثة للبيئة باتخاذ الإجراءات الكفيلة بالحد من انبعاث الغازات المسببة لظاهرة الاحتباس الحراري على أن تدخل المعاهدة حيّز التنفيذ عام ألفين وعشرين.

ومن المقرر أن يضع الاتحاد الأوروبي تعهداته الحالية الخاصة بتخفيض الانبعاث في إطار بروتوكول كيوتو الملزم قانونياً. فما هو اتفاق كيوتو هذا و ما علاقته بمستقبل الربيع العربي؟

5

http://belfercenter.ksg.harvard.edu/publication/21022/what_role_should_the_us_play_in_middle_east.html?breadcrumb=%2Fexperts%2F199%2Fgraham_allison

⁶ http://www.bbc.co.uk/arabic/scienceandtech/2011/12/111211_climate_deal.shtml

في عام 1992 تم إقرار اتفاقية كيوتو للحد من انبعاث الغازات إلى الجو ولمنع تفاقم الاحتباس الحراري، وفي العام 1994 ألزم الإتحاد الأوروبي نفسه بهذه الاتفاقية **وبذلك**، أصبح الغاز أهم من النفط لأن احتراق الغاز لا يلوث البيئة مثل البترول مثلاً. ولكن الغاز موجود في إيران وروسيا، و المستهلك النهم هو أوروبا. فهل كانت واشنطن ستسمح بزيادة النفوذ الروسي في أوروبا وخصوصاً بعد زوال حلف وارسو؟

في العام 1995 عقدت صفقة في قطر أدت إلى تولي الابن مكان أبيه، وجرى ترسيم الحدود مع إيران وبدأ استخراج الغاز لتلبية الطلب الأوروبي، فكان البدء بتسييل الغاز القطري كونه لا يمكن مد أنابيب من قطر إلى أوروبا. وفيما البحرين وسلطنة عمان تشتريان غازاً بعيداً خصص الغاز القطري للسوق الأوروبية لمنافسة الغاز الروسي، وجاء هذا بعد أن قامت واشنطن بإشعال الشيشان ويوغسلافيا بواسطة الأفغان العرب.

في العام 1996 كان بوتين قد بدأ الإمساك بزمام الأمور جراء الوضع في الشيشان وتأسست شركة غازبروم⁷ التي ستصبح هي الحاكم الفعلي لروسيا على غرار الشركات الأمريكية التي تحكم الولايات المتحدة.

واشنطن تدرك خريطة الغاز في المنطقة وهي في تركمانستان وأذربيجان وإيران والعراق و مصر، والغاز الذي كانت واشنطن فقط تعلم بوجوده يقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط⁸ ما بين فلسطين ولبنان وقبرص.

أدركت واشنطن إن السيطرة على هذه المنابع تعني بقاء واشنطن قطباً وحداً يدير العالم، فهي قادرة على منافسة الغاز الروسي. وكون الوصول إلى غاز أذربيجان وتركمانستان صعب نوعاً ما كونهما في منطقة نفوذ روسي لذلك فقد طورت واشنطن خطة تبدأ بالسيطرة على غاز شرق المتوسط وتزويد أوروبا بالغاز لتنافس موسكو. وكان من الضروري إنشاء خط أنابيب لتوصيل الغاز إلى أوروبا.

ولكن الحصول على الغاز من المتوسط يحتاج إلى سلام في المنطقة، والسلام في المنطقة وفق الشرعية الدولية سيكون بداية نهاية إسرائيل. هنا قررت واشنطن تقسيم الشرق الأوسط إلى دول طائفية تديرها إسرائيل، بحيث تتمكن من تصفية القضية الفلسطينية، ولكن قبل طرح مشروع الشرق الأوسط الجديد كانت هناك طريقة أسهل في نظر واشنطن وهي القضاء على المقاومة في لبنان فيمكن الوصول إلى الغاز دون حل القضية الفلسطينية، التي أصبحت عائقاً أمام مستقبل واشنطن. فكيف بدأت واشنطن بالعمل للسيطرة على هذه المنطقة،

⁷ the [Gazprom-Eni South Stream](#) pipeline project.

⁸ Levant Basin Province (estimated total of this entire region 122×10^{12} cu ft (3,500 km³)) within the territorial waters of Lebanon, the Palestinian Gaza Strip, Israel, Syria, and Cyprus http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_natural_gas_fields

علماً بأن الحل من وجهة نظر واشنطن هو إما تقديم حل مقبول للقضية الفلسطينية أو القضاء على المقاومة في لبنان.

جاءت الحرب على لبنان في العام 1996 تحت اسم عناقيد الغضب⁹ للقضاء على حزب الله والمقاومة، لفرض سلام مع لبنان يؤمن إمدادات الغاز، ولكن العدوان فشل و أصبحت المقاومة مشروعاً وألزمت إسرائيل لأول مرة بتاريخها الالتزام بتفاهم نيسان¹⁰. ثم جاء العام 2000 وهو عام النكسة الأمريكية، حيث تحرر الجنوب اللبناني وبنفس العام وصل بوتين خصم الغرب إلى السلطة في روسيا، على إثر وفاة يلتسن.

البدء بتنفيذ مشروع الشرق الأوسط الجديد:

أدركت واشنطن أن الغاز القطري أصبح عاجزاً عن المنافسة في السوق الأوروبية لارتفاع كلفته وأن النفوذ الروسي يزداد في أوروبا مع ازدياد الطلب، وليس ذلك فحسب بل بدأت موسكو تستعيد عافيتها بالانتعاش الاقتصادي.

و كان الهجوم بالطائرات على مبنى التجارة العالمي في نيويورك و على مبنى وزارة الدفاع الأمريكية في سبتمبر 2001 و المحاط بنظريات المؤامرة و الشكوك هو ذريعة الهجوم الأمريكي الذي استهدف إذلال المسلمين بطرق شتى. ولكن ربنا تبارك و تعالى يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ، وَبَنِينَ شُهُودًا ،
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ،
كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ،
إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقَبِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قَبِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ،
ثُمَّ نَظَرَ ،
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ،
ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . ألمدثر 11- 23 صدق الله العظيم

و بعد التفكير و التدبير للمحافظين الجدد عمدت أمريكا الى احتلال أفغانستان، وطبعا الهدف هو قطع طرق الترانزيت عن الصين ومحاصرتها ومحاصرة روسيا و من جهة ثانية محاصرة إيران.

في العام 2002، عقدت واشنطن صفقة مع رجب طيب أردوغان و عبد الله غل اللذان أسسا حزب العدالة والتنمية ليصبح عبد الله غل أول رئيس حكومة إسلامي في تركيا، وكما كان

⁹ http://en.wikipedia.org/wiki/Operation_Grapes_of_Wrath

¹⁰ <http://www.mfa.gov.il/MFA/Peace%20Process/Guide%20to%20the%20Peace%20Process/Israel-Lebanon%20Ceasefire%20Understanding>

الانقلاب في قطر سببه الغاز كان الانقلاب في تركيا سببه الغاز. فمع ظهور حزب العدالة والتنمية أعلنت واشنطن عن خط غاز نابوكو، [Nabucco pipeline](#) وبعدها بعام تم احتلال العراق في 2003 لأنه من المفترض أن يغذي تصدير الغاز إلى أوروبا لحساب واشنطن.

لماذا نابوكو؟ طبعا تدرك واشنطن أن الغاز في آسيا الوسطى على درجة عالية من الأهمية و هي تريد أن تسيطر على تصديره و أن تحرم روسيا من السيطرة عليه، لذلك خططت واشنطن أن يتدفق الغاز عبر هذا الخط من العراق¹¹ بالتعاون مع أذربيجان، تركمانستان و مصر¹². فحين أعلنت واشنطن عن خط نابوكو كانت موسكو تعتقد أن هذا الخط ولد ميتا، لأنها لم تكن تدرك أن البحر المتوسط يحوي الغاز الذي تريده واشنطن. و لكن واشنطن كانت تخطط أولاً للحصول على الغاز من مصر وساحل المتوسط: [فلسطين](#) ولبنان وقبرص. وبالتالي حكما تفقد موسكو نفوذها في المتوسط وأوروبا ووسط آسيا دفعة واحدة، وتكون واشنطن سيطرت على العالم لعقود طويلة.

و لكن هناك الغاز الإيراني و التي تريد إيران تصديره. و قد عرضت إيران¹³ أن تربط خطوط تصدير الغاز الإيراني بنابوكو و لكن الولايات المتحدة و الاتحاد الأوروبي رفضتا و ذلك لزيادة الضغوط على إيران الجمهورية الاسلامية. و لو انكسر الحلف الاستراتيجي بين إيران و سوريا لكان ذلك مقدمة للدخول في الربيع الإيراني حتى يتسنى تصدير الغاز الإيراني عن طريق نابوكو. أما بقاء هذا الحلف فسيفي تهديدا لمصالح أوروبا و الولايات المتحدة لذلك فالتخلص من حكم عائلة الأسد يعتبر هدفا استراتيجيا للغرب لأن خطوط الغاز العربي و الإيراني يمكن أن تلتقي في سوريا.

و يعتبر نابوكو حلم أردوغان حيث يجمع غاز المنطقة في تركيا، ليصدر إلى أوروبا دون المرور في اليونان، فنتحول تركيا إلى دولة ثرية بالترانزيت الذي يُفترض أن يبدأ بـ 31 مليار متر مكعب و يصل إلى 40 مليار متر مكعب، ولهذا فإن أردوغان الذي يدرك أن الوصول في البداية إلى غاز وسط آسيا صعب، أشرف بنفسه على زيارة القاهرة لدعوته للتوقيع على اتفاق نابوكو، ولم يدرك وقتها حسني مبارك أنه يوقع على وثيقة إقالته من السلطة ذلك أن واشنطن

¹¹ The main suppliers for Nabucco will be Iraq, Azerbaijan, and potentially Turkmenistan.^[36] At the first stage, 10 bcm of natural gas per yer is expected from Iraq.^[49] Iraqi gas would be imported via the [Arab Gas Pipeline](#) from the [Ekas field](#).^[50] MOL has acquired 10% stake in Pearl Petroleum Company Limited, which holds legal rights in Khor Mor and [Chamchamal](#) gas-condensate fields in the [Kurdistan Region of Iraq](#).^[51] <http://nuclearnuttery.wordpress.com/2011/06/24/race-to-the-top-fueling-the-future-fighting-for-a-foothold-in-the-middle-east-the-transition-from-oil-dependency-to-natural-gas-and-the-unseen-multinational-power-grab-while-we-were-fixated-upo/>

¹² Egypt could provide 3–5 bcm (106-177 Bcf) of natural gas through the [Arab Gas Pipeline](#).^[52]

¹³ [Iran](#) has also proposed to supply gas to Nabucco pipeline and this was backed by Turkey; however, due the political conditions this is rejected by the EU and the United States.^{[31][41][58][59][60]}

قد قررت أن وصول الإخوان إلى السلطة في مصر يخدم استقرار مصر بامتصاصه لغضب الجماهير و يساعد الاستقرار في الشرق الأوسط و بالتالي استمرار تدفق البترول و الغاز.

و لكن سرعان ما واجهت موسكو الخطط الأمريكية بالرد، وكان رد موسكو عنيفا بعد الإعلان عن خط نابوگو، حيث أعلنت شركة غاز بروم¹⁴ في منتصف 2007 أنها ستستثمر في مشاريع غاز في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا وحتى واشنطن ستجد نفسها تشتري الغاز من روسيا، وأعلنت روسيا عن أربع خطوط غاز وبدأت فعليا بالعمل وهي:

1- السيل الشمالي يوصل الغاز من شمال روسيا إلى ألمانيا عبر البحر دون المرور ببلاروسيا وبدأ تنفيذ هذا المشروع فعليا وبالتالي خف الضغط الأمريكي على روسيا البيضاء لان إسقاط بيلاروسيا لن يفيد بعد الآن لوقف إمداد الغاز.

2- السيل الجنوبي عبر البحر الأسود إلى بلغاريا ومنها يتوزع خط عبر رومانيا هنغاريا النمسا، وجنوبا عبر اليونان و إيطاليا، وقد تم إنجاز معظم الاتفاقيات لمد هذا الخط.

3- السيل الأزرق عبر تركيا فسوريا الأردن لمد الأردن وإسرائيل بالغاز، و هذا يثبت أن موسكو لم تكن تعلم بوجود الغاز في المتوسط وقد تم إلغاء هذا الخط فعليا، بعد أن علمت روسيا عن احتياطات الغاز في المتوسط.

4- مد خط من نيجيريا إلى النيجر فالجزائر لتسييل الغاز لنقله إلى أوروبا ولاحقا مد أنبوب إلى أوروبا.

كما قامت شركة غاز بروم بالإستحواذ على نصف حصة شركة اينبي الإيطالية في ليبيا، وبدأت بالاستثمار في السودان وزار بوتين مصر على أمل الاستثمار في مصر. ورداً على الخطوات الروسية و علم أمريكا بالغضب الذي يسيطر على الشارع العربي وصولا الى ما سمي بالربيع العربي، فهي ترسم خطواتها القادمة لأحتواء الثورات العربية و تشجيع الانقسامات الداخلية تمهيدا لتقسيم المنطقة وعزل روسيا والصين عن المتوسط، والاستحواذ على غاز مصر و المشرق العربي ، ومن ثم قطع الطريق في شمال آسيا على أية مشاريع روسية.

الربيع العربي

وفي عام 2008، قالت مؤسسة راند¹⁵ الاميركية البحثية في تقرير قدمته الى وزارة الدفاع الاميركية ان "هدفا من الاهداف النهائية لاستخدام الولايات المتحدة وسائل مختلفة في دفع

¹⁴ The South Stream pipeline project was announced on 23 June 2007, when the Chief Executive Officer of Italian energy company [Eni Paolo Scaroni](#) and the Vice-Chairman of Russian [Gazprom Alexander Medvedev](#) signed in [Rome](#) a Memorandum of Understanding (MOU) for construction of South Stream.^[2] On 22 November 2007, Gazprom and Eni signed in [Moscow](#) an agreement about establishing a joint project company for the commissioning of the marketing and technical feasibility studies of the project.^[3] The joint venture South Stream AG, equally owned by Gazprom and Eni, was registered on 18 January 2008 in Switzerland.^[4]

¹⁵ <http://www.rand.org/>

الديمقراطية في الشرق الاوسط، بما فيها التدخل العسكري والاستعانة بذرائع اخرى هو اقامة حكومات ديمقراطية...والوسيلة الافضل هو اطلاق السكان المحليين بأنفسهم ثورات في بلادهم لدفع الديمقراطية."

قد يتفق هذا مع ما جرى في الشرق الاوسط، غير ان الموقف الحذر والمتغير لواشنطن ومعاييرها المزدوجة في تعاملها مع الاحداث، قد يعني ان التنسيق داخل أجهزة الحكم في الولايات المتحدة ينقصها التناغم. أو قد يعني أن الاحداث بتسارعها قد سبقت توقعات المخططين. و يبقى الارتباك الامريكي تجاه أحداث 2011 مثار تساؤلات كثيرة.

و هنا علينا التوقف للحظات للتأكيد على حقيقة أن الانتفاضات العربية و تحرك الناس للتعبير عن نفاذ الصبر من الدكتاتوريات كان وليد ضغوط معيشية و ظروف داخلية بحثة قد تكون وليدة الشعور بالاحباط و فقدان الكرامة و أنعدام الحريات و لاعلاقة للقوى العظمى بدفع الناس للنزول للشارع. و لكن كما سبق أن ذكرنا فإن لكل فعل ردة فعل و لاشك عندي أن العديد من القوى حاولت و لا زالت تحاول توظيف التحرك الشعبي العفوي لصالحها بما فيها الولايات المتحدة و غيرها.

ويمكن القول أن وثائق ويكي ليكس كانت مقدمة لبدء الهجوم الأمريكي الجديد على المنطقة، فهذه الوثائق قد تم تسريبها عن قصد ولسبب، فما تسريبات ويكيليكس إلا رسالة أمريكية إلى من تبتزهم في الشرق الأوسط مفادها أن من لا يسير معنا ستسرب وثائقه، ومن جهة ثانية بين كل ألف وثيقة فبالإمكان تسريب وثيقة كاذبة بقصد زرع البلبلة للحرب النفسية.

و من أهم الوثائق كانت تلك التي تتحدث عن الفساد في تونس، لدرجة أن بن علي أيامها حجب موقع جريدة الأخبار عن التونسيين كي لا تصل الفضائح إلى الشارع والسبب هو التحضير للأطاحة بنظام الحكم في ليبيا ولاحقاً الجزائر لقطع الطريق أمام روسيا وبل أمام النفوذ الصيني المتنامي في إفريقيا. وكان يجب التخلص من مبارك كذلك لعدة أسباب منها خطة تقسيم مصر و لا تخشى أمريكا البتة ممن سيخلف مبارك لأنها تسيطر عمليا على خيارات مصر الاقتصادية و العسكرية.

وقبل الحديث عن الربيع العربي سنمر على السودان لنفهم العداء الامريكي لنظام البشير و تطور الأحداث في اليمن والصومال و لتشكيل صورة كاملة عن الأحداث ، فماذا حدث في السودان.

إلى جانب الغاز زاد الطلب الأوروبي على الوقود الحيوي، الذي بدأ من 1% و ارتفع إلى 7% و سيصل إلى 10% و بالتالي فإن 10% من الوقود في الإتحاد الأوروبي سيكون من الوقود الحيوي. و بدأ صراع روسي أمريكي على الوقود الحيوي، والسودان إلى جانب غناه بالنفط والغاز مرشح لأن يكون أكبر مصدر للوقود الحيوي في العالم. وضمن صفقة واشنطن

مع أمير قطر تم إنشاء شركة كافاك القطرية للإضافات البترولية وبدأت كافاك بالاستثمار في السودان لحساب واشنطن لإنتاج الوقود الحيوي، أي أن الولايات المتحدة وضعت قاعدة عسكرية في قطر لبدء استخراج الغاز والوقود الحيوي. وكان هناك في السودان صراع خفي أشعل السودان حيث جن جنون واشنطن من العقود بين السودان والصين للتنقيب عن النفط ودخول غاز بروم للسودان لأستثمار الغاز، حتى وصل الأمر إلى استدعاء الرئيس السوداني إلى محكمة الجنايات الدولية لمحاكمته على جرائم واشنطن في السودان و لكن الصين التي غيرت إستراتيجيتها القتالية وأصبح بمقدورها شن ضربات إستباقية للحفاظ على الأمن القومي الصيني، دعمت السودان لشن هجوما مضادا من خلال دعم تمرد في تشاد التي تصدر الإرهاب للسودان¹⁶.

هنا حين وصل ثوار تشاد المدعومين من الصين و السودان إلى تخوم العاصمة التشادية¹⁷ أوقفت واشنطن عدوانها في السودان عبر صفقة، وهدأ إقليم دارفور ونسي العالم أن الرئيس السوداني مطلوب للمحكمة الدولية، و بالمقابل فإن أمريكا سعت لتقسيم السودان حتي تتمكن من استغلال ثروات الجنوب و عزل الشمال. و قد أعلنت وزيرة الخارجية الامريكية يوم الاربعاء في 2011/12/11 السماح لشركات النفط الامريكية بالاستثمار في دولة الجنوب و بذلك يكون مسلسلا جديدا قد بدأ.

ولكن أمريكا التي هزمت جزئيا ، بدأت بإستراتيجية جديدة من خلال التضيق على إمدادات الصين من نفط السودان فقررت ضرب خط الإمداد البحري و لجأت الى قرصنة الصومال، و بذلك بدا فصل جديد من القرصنة البحرية و يقال إنها كانت تدار من إحدى الدول المؤيدة لواشنطن التي كانت ترسل للقرصنة إحداثيات السفن المستهدفة البعيدة عن القطع العسكرية عبر رصدها بالأقمار الصناعية وكانت بداية لإشعال المنطقة فإشتعل اليمن. في الشمال الحوثيين وفي الجنوب الانفصاليين، ودخلت قوات روسية وصينية إلى المياه لحماية مضيق باب المندب من القرصنة وقبضوا على الكثير من القرصنة حتى أصبحت القرصنة تنقل كاهل من يديرها. وكما ظهرت القرصنة فجأة، اختفت فجأة بإشعال اليمن في ثورات لقوى متصارعة، ولم تنجح واشنطن في منع إمدادات النفط الصيني من السودان ولازال الصراع قائماً على منطقة أبيي الغنية بالنفط.

و إذا كان أسراً حزب الله لجنود إسرائيليين في 2006 قد قدم موعد الحرب فساعد حزب الله على النصر فإن إحراق البوعزيزي نفسه سرع المشروع الأمريكي المتعلق بسوريا لاحقاً، فتم إسقاط بن علي ومن ثم مبارك وبدء الهجوم على سوريا وليبيا دفعه واحدة، ففي تونس التي أنطلقت فيها الاحتجاجات الشعبية تحرك الجيش تحت غطاء حماية الشعب و كذلك في مصر، و لا يدري أحدٌ أن كان الجيش سواء في تونس أو مصر سيسمح بتطور ديمقراطية حقيقية أو

¹⁶ <http://www.smallarmssurveysudan.org/pdfs/HSBA-SWP-25-Local-and-Regional-Dimensions-Chad-Sudan-Rapprochement.pdf>

¹⁷ http://en.wikipedia.org/wiki/Civil_war_in_Chad_%282005%E2%80%932010%29

أنه سيتدخل في الوقت المناسب ليتحكم بالوضع بما يخدم مصالح أمريكا في المنطقة. ومن تونس دخل السلاح إلى ليبيا ومن مصر دخلت قوات شاركت في أحداث ليبيا. ولكن مع فشل إسقاط سوريا حتى الآن توقف العنف الطائفي في مصر وهذا يعني أن خطة التقسيم الأمريكية مجمدة إلى أجل غير مسمى.

طبعاً التغيير في سوريا يحتاج إلى الخاصرة اللبنانية التي لم تستطيع إسرائيل احتلالها، و الجديد في الأمر هو الغاز المتوسطي في سواحل لبنان و فلسطين اللذي تأمل أمريكا السيطرة عليه لتشغيل خط نابوكو بدون الغاز الإيراني و منافسة روسيا و إبقاء الهيمنة الأمريكية على أوروبا و بالتالي على العالم، من خلال إيصال الغاز المصري و الغاز الفلسطيني الخاضع للاحتلال عبر سوريا إلى تركيا و مع غاز أذربيجان سيعمل خط نابوكو و يعيد روسيا إلى حجمها السابق و تبقى أوروبا تحت العباءة الأمريكية إلى الأبد، و يصبح إسقاط إيران أسهل. و لهذا حركت أمريكا الخلاف الأرمني التركي و الفرنسي التركي و الأرمني الأذري و الملف الكردي عبر سياسة العصا و الجزرة مع تركيا التي عليها إما قبول دور إسرائيل في المنطقة أو ضربها و إسقاط نظامها . و هذا يفسر الانقلاب في الموقف القطري تجاه سوريا، و هي الخاسر الأكبر من تراجع النفوذ الأمريكي. و لناخذ الاحتمالات من خلال الوضع في سوريا لنفهم طبيعة الصراع و ما هو القادم:

ماذا سيحدث إذا سقط النظام السوري :

إذا سقط النظام السوري أصبح هناك حصار على الغاز الإيراني و تأجيل لملف إيران و تحرك متوقع للشعب الإيراني لإسقاط نظام الملالي دون المغامرة بحرب غير مأمونة العواقب، و سيتم وصل خط نابوكو الذي ينقل الغاز العراقي و الغاز الأذري بخط الغاز العربي الذي يحمل الغاز المصري و اللبناني و الغاز من شواطئ فلسطين فتصبح تركيا محور المنطقة و تبقى أوروبا تحت النفوذ الأمريكي و يضعف دور روسيا عالمياً.

و بالتالي فإن تشغيل الخط العربي يحتاج إلى تغيير في سوريا لمحاصرة إيران و الحصول على إمدادات الغاز من مصر و الغاز الفلسطيني عن طريق إسرائيل و لبنان و سوريا لتصبح تركيا هي نقطة التجميع و التوزيع للغاز فيكون خط نابوكو منافس للسيل الجنوبي الروسي. و لكن هذه الخطة تقتضي أن يكون هناك سلام بين العرب و إسرائيل على أساس الشرعية الدولية و أن يكون حزب الله قد تم تحييده عسكرياً و تحوله إلى حزب سياسي و هذا كله يقتضي أن يسقط النظام.

و ماذا سيحدث لو بقيت أسرة الأسد تحكم سوريا؟

في حال لم يسقط النظام فالذي سيحدث أن غاز المتوسط سيخرج من معادلة الاحتياط الغازي الأوروبي لتزداد أهمية الغاز الإيراني و هو من أكبر احتياطات العالم فيحول إسرائيل إلى منطقة معزولة عليها أن تتعامل مع تناقضاتها الداخلية من جهة و مع تقلص نفوذها في أوروبا و الولايات المتحدة. فيكون عليها إما قبول السلام العادل الشامل لتشارك بأنبوب غاز يصل إلى

أوروبا لأنها غير قادرة على منافسته او العزلة التامة ، و تصبح تركيا محكومة بين الأنبوب الروسي و الأنبوب الإيراني و بالتالي تكون مرغمة للخروج من العباءة الأمريكية و من الناتو و ترتيب وضعها مع جوارها لتدخل في المنطقة الاقتصادية.

و بالتالي فمن العرض الذي سبق يمكن قراءة عدة توقعات:

- 1- يستحيل أن تقبل روسيا بضرب سوريا كونه يهدد مصالحها و يعزلها و يهدد مستقبلها الاقتصادي فضلاً عن مجالها الجيوسياسي
- 2- نتائج ما يحصل في سوريا سيؤثر تأثيراً عميقاً على مستقبل إسرائيل
- 3- نتائج ما يحصل سيحدد مستقبل علاقة أمريكا نفسها بروسيا و أوروبا فضلاً عن الشرق الأوسط فهي أما ان تبقى قطب أحادي يحكم العالم أو يصبح العالم متعدد الأقطاب و على الأقل يزداد فيه تأثير مجموعه العشرين
- 4- سقوط سوريا يعني بقاء قطر ضمن نادي دول الغاز الهامة في السياسة الأمريكية و صمود النظام يعني تراجع الدور القطري في سوق الغاز و بالتالي ستزداد أهمية إيران و دورها في المنطقة
- 5- سقوط النظام في سوريا قد يمهد لقيام سوق عربية مشتركة للتغلب على التحديات الاقتصادية التي يواجهها المواطن العربي. بينما صمود النظام يعني استمرار النفوذ الإيراني و استمرار تشرذم العرب مما يفرض على مصر مسؤوليات إضافية و دور طليعي عليها أن تلعبه لقيادة المجموعة العربية في مواجهة التحديات الجديدة.

هذا عن سوريا. أما مصر و ليبيا و تونس فالواضح أن القوى الإسلامية بقيادة الإخوان ستكون في الواجهة و سيكون لديها الفرصة لتبرهن أنها قادرة على قيادة الأمة و اجتياز مهالك الحكم و معارك التنمية. فهل سيكتب لها النجاح؟ هذا سيتوقف طبعاً على مرونتها في فهم محيطها الداخلي و الخارجي و مرونتها في التعامل مع الشرائح الوطنية الاخرى الموجودة في ساحات الوطن. فالاستئثار بالسلطة سيكون مضراً جداً و التعاون مع الآخرين سيساعد على فرص النجاح و على العبور من استراتيجيات التنظيمات السرية إلى استراتيجيات الفضاءات المنفتحة.

و ماذا عن مستقبل إسرائيل في المنطقة مع هذه الأنظمة الجديدة فإن إسرائيل الآن تظهر السعادة لما يجري "ولكن وجه السعادة الإسرائيلية بالربيع العربي لا بد أن يفرز فوراً وجهاً آخر للتعاسة يبدأ من أن العالم العربي الذي تعرفه إسرائيل لم يعد معلوماً، سواء كانت الدول العربية في حالة حرب، أو حالة سلام مع الدولة العبرية. فقد خبرت إسرائيل سوريا قلباً وقلبا، وعرفت مصر من خلال حفنة قليلة من صناعات القرار كان يمكن التنبؤ بردود أفعالهم ، بل وكان معروفاً حدود حركة عرب المغرب، والمدى الذي يصل إليه عرب المشرق. كل ذلك لم يعد متاحاً الآن، وعلى إسرائيل أن تبدأ من أول السطر، خاصة أن الثورات لن تلد تيارات ليبرالية قوية كتلك التي نجمت عن ثورات أوروبا الشرقية ووقعت فوراً في الهوى الإسرائيلي.

الثورات العربية على العكس ولدت أشكالاً مختلفة من الإسلام السياسي الذي لديه أصولية عدائية تجاه إسرائيل. وثبت لدى إسرائيل من خلال علاقاتها بتركيا أنه حتى في حالة اعتدال الحركات الإسلامية وعلاقتها الوثيقة بالغرب فإن هناك حدوداً لا يمكن اختراقها، وهناك قضية فلسطينية لا يمكن تجاهلها. الربيع العربي إذن، حتى ولو جعل العرب مشغولين لفترة بأمور داخلية، فإنه على الأرجح بعد مرحلة انتقالية سوف يولد قيادات معادية أو على الأقل غير مرحبة بالسلام مع إسرائيل.¹⁸

و في المحصلة النهائية علينا أن نسأل، هل يبشر الربيع العربي بمستقبل واعد للشعوب العربية؟

نعم. يستطيع العرب بناء مستقبل زاهر إذا ما وعوا الدروس و فهموا الاطماع و قرروا وضع مصالحهم العامة فوق مصالحهم الخاصة. و اجتمعت كلمتهم على مفاوضة القوى المؤثرة بعقلانية. نحمي مصالحكم ما لم تتعارض مع مصالحنا الحيوية و نريد منكم مثلما تريدون منا.

و أخيراً فالحديث عن مستقبل الربيع العربي حديث طويل لن ينتهي ضمن هذه العجالة و للحديث بقية...

و أن آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

¹⁸ عبد المنعم سعيد جريدة الشرق الأوسط 14 / 12 / 2011